على أحد الطلبين على التّوالي ﴿ **لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً** ﴾ والّذي يجعلنا نميل إلى هذا الرّأي هو أنّه بتأمّل الطّلبين والرّد عليهما على التّوالي يتّضح أنّ ثمة تدرّجاً من الخطير إلى الأشدّ خطورة. حينما امتلأت نفوس المكّيّين بالكبر وعقدوا النّيّة عليه كانوا في مستوى من يَهْذي بأن يطلب نزول الملائكة عليه شاهدين بصدق الرّسول في دعواه. قال تعالى في حقّ هؤلاء : ﴿ **لقد استكبروا في أنفسهم** ﴾ وحينما وصلوا الدّرجة الّتي ليس وراءها درجةٌ في الاستكبار والطّغيان ، كانوا في مستوى من بلغت به الجراءة للدّرجة الّتي يطلب معها أن يرى اللّه تعالى جهرة ، قال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ **وعتوا عتوّاً كبيراً** ﴾ قال الزمخشري بشأن قوله تعالى : ﴿ **لقد استكبروا في أنفسهم** ﴾[1] ، « وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية . وفي أسلوبها قول القائل :

وجارة جسّاسٍ أبأنا بنابها
كليباً ، غَلَتْ نابُ كليْب بواؤها

وفي فحوى هذا الفعل دليلٌ على التّعجّب من غير لفظ التّعجب ، ألا ترى أنّ المعنى ما أشدّ استكبارهم وما أكبر عتوّهم وما أغلى ناباً بواؤها كليب» .

وما دام خطير الطّلبين لن يتحقّق فمن باب أولى أشدّهما خطورة . وحينما يكون ثمة ردٌّ عنيفٌ على أوّل الطّلبين ففي ذلك الغناء عن الرّدّ على ثاني الطّلبين وأشدّهما خطورة ، وهذا ما حدث فعلاً فإلى الآية التالية . قال تعالى : ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً** ﴾ .

فما المراد باليوم في الآية الكريمة ؟ أهو اليوم الّذي يتوفّى فيه

---

(١) الكشّاف ٢/٤٠٥ .

المجرم أم اليوم الّذي يبعث فيه للحساب والجزاء ؟ يبدو للوهلة الأولى أنّه لا مانع من كون اليوم في الآية الكريمة يعني هذا أو ذاك . لقد صوّرت هذه الآية الكريمة مثلاً ، من سورة محمّد[1] الطّريقة الّتي يموت فيها الكفّار . قال تعالى : ﴿ **فكيف إذا تَوَفَّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ وكذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام[2] : ﴿ **ولو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخْرِجوا أنفُسَكم اليوم تُجزَون عذاب الهون بما كنتم تقولون على اللّه غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال[3] : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ . وما أكثر الآيات الّتي تشير إلى الطّريقة السّيئة الّتي يعامَلُ بها المجرمون يوم القيامة وفقاً لأعمالهم . وقد نصّت هذه السّورة المباركة على شيء من ذلك . فهل في الإمكان القول بأنّ الآية الكريمة تَعْني أحد اليومين بالذّات ؟ الحقيقة أنّا حينما نتأمّل الجوّ الّذي يدور فيه الحديث نتبين أنّه عن يوم القيامة الّذي ينكره الكافرون . والمعروف أنّهم لا ينكرون الموت بطبيعة الحال . وقد جاء في أكثر من موضع في هذا القسم الإشارة إلى يوم القيامة . منها قوله تعالى : ﴿**بل كذّبوا بالسّاعة وأعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيراً**﴾ وقوله تعالى : ﴿**وقال الّذين لا يرجون لقاءنا**﴾ والمعروف أنّ أكثر آيات هذا الرّد الأخير متعلّقة بيوم القيامة ، وقد دارت فيها لفظة اليوم كثيراً . بل إنّ اثنتين من الآيات ابتدأت ، على غرار الآية الّتي نحن بصددها بلفظة اليوم ﴿ **ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونزّل الملائكة**

---

(١) آية ٢٧ .
(٢) آية ، ٩٣ .
(٣) آية ، ٥٠ .

تنـزيلاً ﴾ ﴿ ويـوم يعضّ الظّالم على يـديه يقـول يا ليتني اتّخـذت مـع الرّسول سبيلاً ﴾ . في ضوء ما سبق نستطيـع أن نوافق الّـذين قالـوا إنّ المراد باليـوم في الآية الكـريمة يـوم القيامـة . فهؤلاء المجرمـون حينما يـرون الملائكـة يوم القيـامة يشعـرون بالحُـزْن والأسى وخيبة المسعى . كـانوا في الحيـاة الدّنيـا يطلبـون من باب السّخـرية والاستهـزاء أن يروا الملائكة ، وهم على علمٍ أكيد بأنّ ذلك لن يتحقّق لهم مطلقـاً . وبعد أن فوجئوا بالبعث بعد المـوت ، فوجئـوا بملائكـة العذاب حقـائق ماثلة أمـامهم . وعلى عادتهم في الـدّنيا ، يـطلبون أن يكـونـوا في مـأمنٍ من بطشها وسطوتها ، ولكن أنّى لهم ذلك ؟ .

وجـرياً مـع طريقـة السّـورة الكـريمـة في استعـارة بعض الألفـاظ والتّعـابير الّتي تجـري على ألسنـة العـرب الّـذين نـزل القـرآن الكـريم بلسانهم ، بقصد تقـريب المعاني للعـرب أوّلاً ، تستعيـر الآية الكـريمة القول : ﴿حجراً محجوراً ﴾ . قال تعـالى : ﴿ يوم يـرون الملائكـة لا بشـرى يـومئـذٍ للمجـرمين ويقـولـون حجـراً محجـوراً﴾ . يقـول الزّمخشري[1] في هـذا الصّدد : « حجـراً محجوراً ، ذكـره سيبويـه في باب المصادر غير المتصرّفة المنصوبة ، بأفعالٍ متروكٍ إظهـارها نحـو ، معاذ اللّه وقعدك[2] اللّه وعمرك الله . وهذه كلمةٌ كانوا يتكلّمون بها عند لقـاء عدوٍّ مـوتـور أو هجـوم نـازلـةٍ أو نحـو ذلـك . يضعـونهـا مـوضـع الاستعـاذة . قال سيبـويه : يقـول الرّجـل للرّجـل : أتَفْعَـلُ كـذا وكـذا

---

(١) الكشّاف ٢ / ٤٠٥ .

(٢) جاء في القاموس : «وقِعْدَك اللّه بـالكسر استعـطافٌ لا قَسَم . . . . وهو مصـدرٌ واقعٌ موقع الفِعْـل بمنزلـة عَمْرَك اللّه أي عَمَـرْتُك اللّه ومعنـاه سألتُ اللّه تعميـرك وكذلـك قِعْدك الله تَقديره قَعَدْتُـك اللّه أي سألت اللّه حِفْـظَكَ من قولـه تعالى : ﴿عن اليمين وعن الشّمال قعيد﴾ .

فيقول: حِجْراً ، وهي مِنْ حَجَره إذا منعه ، لأنّ المستعيذ طالبٌ من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه . فكأنّ المعنى : أسأل اللّه أن يمنع ذلك مَنْعاً ويحجره حجراً . . . . فإن قُلْت : فإذ قد ثبت أنّه من باب المصادر فما معنى وصفه بمحجور ؟ قلت : جاءت هذه الصّفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا : ذيلٌ ذائل ، والذّيل الهوان . وموتٌ مائت . والمعنى في الآية أنّهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه . وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنّهم لا يلقونهم إلاّ بما يكرهون . وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور وشدّة النّازلة » وهذا كلامٌ عظيم .

وقد يقول قائل : وما العمل بأعمال الكفّار الطيّبة الّتي أقرّها الإسلام وأثاب عليها ؟ والجواب على ذلك أنّها لا قيمة لها ، فقد حبطت بسبب شركهم . قال تعالى[1] : ﴿ **إنّ اللّه لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشْرِك باللّه فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النّار هم خالدون** ﴾ وقال تعالى في هذه السّورة الكريمة مباشرة : ﴿ **وَقَدِمْنا إلى ما عملوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ . والهباء : ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشّمس شبيه بالغبار . وإذا كان الهباء المنتظم لا قيمة له فكيف به وقد عبث الهواء ؟ لا شكّ أنّه أقلّ قيمة . وهذا هو معنى القول : « منثوراً » في الآية الكريمة .

وما معنى القول على لسان ربّ العزّة : ﴿ **وَقَدِمْنا** ﴾ ؟ الحقيقة أنّه يقال عنه ما يقال عن العديد من التّعابير والألفاظ في هذه السّورة

---

(١) سورة النساء ، ٤٨ .

(٢) سورة التّوبة ، ١٧ .

الكريمة ، بقصد تقريب المعاني لنا نحن البشر . فلنصغ إلى ما يقول الزّمخشريّ في هذا الشّأن[1] : « ليس ههنا قدومٌ ولا ما يشبه القدوم . ولكن مُثّلتْ حال هؤلاء وأعمالهم الّتي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقِرى ضيفٍ ومَنٍّ على أسير وغيرِ ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قومٍ خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزّقها كلَّ ممزّق ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً » .

وإذا كانت أعمال المشركين الطّيّبة قد جعلها اللّه تعالى بمنزلة الهباء المنثور ، فعلى العكس من ذلك أعمال المتّقين الطيّبة الّتي يصل الجزاء عليها إلى سبعمائة ضعف ، والّتي يدخلون بسبب تفضّل اللّه عزّ وجلّ بقبولها جنّات عَدْن . قال تعالى عن هؤلاء : ﴿ **أصحاب الجنّة يومئذٍ خَيْرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلاً** ﴾ إنّ اشتمال الآية الكريمة على لفظة خير الّتي سبق أن جاءت في الآية الكريمة الّتي تستفهم على طريقة الاستهزاء والتبكيت : هل العذاب المقيم الّذي فيه الكافرون خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وعد المتقون ، تجعل هذه الآية بمثابة الإجابة على ذلك الاستفهام وتقرير الواقع المتبادر إلى كلّ ذهن .

أمّا أنّ الجنّة خيرٌ مستقرّاً فذلك في مقابل سوء المستقرّ الّذي انتهى إليه الكافرون . وأمّا أنّها أحسن مقيلاً ، فذلك في مقابل العذاب الأليم المستمر الّذي هو من نصيب الكافرين ، والّذي لا يوجد معه ليلٌ ولا نهار . إنّما هو التّماثل بين كافة الأزمنة لتواصل العذاب . ومع أنّه ليس في الجنّة ليلٌ ولا نهار ، بالمعنى المعروف في الدّنيا ، إلاّ أنّ النّعيم المقيم الّذي هو من نصيب المتّقين يجعلهم قادرين على استعادة

(١) الكشّاف ٢/٤٠٥ وانظر هنا النّكت فى إعجاز القرآن للرّمّاني ٧٩، ٨٠ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ذخائر العرب ١٦ .

أحلى أوقات الرّاحة في الدّنيا والانتهاء إلى أنّه ليس ثمّة مجالٌ للمقارنة بين النّعيمين . وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه السّورة المكيّة الّتي تخاطب في الدّرجة الأولى كفّار مكّة قد استعارت في الآية الّتي نحن بصددها لفظة المقيل الّتي يرتبط بها أصعب الأوقات الّتي يصادفها المكّيّون في صيفهم الشّديد الطّول . وحينما يتاح لهذه الفترة أن تنكسر حدّتها ، بسبب ما يصنع المكيّون من أجلها فليس وراء تلك المتعة متعة . لقد خاطبت الآية الكريمة المكّيّين باللّغة الخاصّة بهم فاستعارت الحالة الحسنة لهم وقت القيلولة للدّلالة على نعيم الجنّة المقيم ، بقصد تقريب مفهوم النّعيم المقيم في الجنّة إلى أذهانهم ، خاصّة وأنّ ذلك يأتي عقب العديد من المشاهد الرّهيبة للكافرين يوم القيامة . ونكرّر الملاحظة السّابقة من أنّ الحديث عن الجنّة محدود ، إذ إنّه بمنزلة الواحة الّتي تحفّ بها الصّحاري ، وينبغي ألّا ننسى أنّ الإنذار هو الطّابع الغالب على السّورة تمشّياً مع لفظة « نذير » في الآية الكريمة الأولى من السّورة .

ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ أصحاب الجنّة إنّما استحقّوا ذلك لأنّهم بعكس أصحاب النّار ، يخافون مقام ربهم ولقاءه وبالتّالي هم يُعدّون في الحياة الدّنيا العُدّة لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود . قال تعالى في صفات المؤمنين[1] : ﴿ **الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون * والّذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هُمْ يوقنون * أولئك على هدىً من ربّهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وقد سكتت الآيات الكريمة تماماً عن طلب كفّار مكّة أن يروا اللّه

---

(١) سورة البقرة ، ٣ ـ ٥ .

تعالى ، امتداداً لرحمة اللّه تعالى ونعمته . فلم تشأ إرادته عزّ وجلّ استئصال شأفة المكيّين المكذبين للرّسول الكريم المنكرين للبعث والّذين يجهلون أين تنتهي بهم أقدارهم . وكان السّكوت لسببين رئيسيّين . الأوّل لأنّهم سبق في علمه عزّ وجلّ أنّهم ، إذا تحقّقت تلك الخوارق لن يؤمنوا ، قياساً على أمثالهم من مكذّبي الرّسل السّابقين . وعدم إيمانهم معناه أن تطبق بشأنهم سنّة الله تعالى بإهلاكهم . ولم تشأ إرادة اللّه تعالى ذلك ، إكراماً لسيّد الخلق محمّد بن عبد اللّه صلى الله عليه وسلّم الّذي كان بين ظهرانيهم والّذي كان يدعو دائماً وأبداً ربّه عزّ وجلّ أن يهدي قومه فإنّهم لا يعلمون ، وأن يمهلهم عليهم هم أو ذراريهم أن يسلموا ، وذلك ما تمّ فعلاً . والثّاني لأنّ هؤلاء الأقوام ليسوا بحاجةٍ مطلقاً لأيّة معجزةٍ حسّيّة لأنّها في أحسن أحوالها ستكون بمرأى فئةٍ معيّنة فقط ، بينما بين أيدي القوم كتاب اللّه تعالى الخالد ، ففي إمكان كلّ واحدٍ أن يتأمّله ويتدبّره وسينتهي المنصف حتماً إلى أنّه كلام ربّ العالمين . ومن الطّبيعي إذن أن يتحوّل الحديث إلى هذه المعجزة الخالدة ، كما سنرى .

وإذا كان من جانب هذه السّورة سكوتٌ تامٌّ عن طلب الّذين لا يرجون لقاء اللّه تعالى أن يروه عزّ وجلّ ، فإنّ في القرآن الكريم ، في غير هذه المناسبة تحذيراً غير مباشر للقوم . فهؤلاء بنو إسرائيل مثلاً قد أخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون ، بعد أن طلبوا من موسى عليه السّلام أن يروا اللّه تعالى جهرة ، جاء في سورة البقرة المدنيّة قوله تعالى[1] : **﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى اللّه جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون﴾** .

---

(١) آية ٥٥ .

وحيث إنّ السّبب الأهمّ وراء استهتار القوم المتمثّل في تكذيبهم للرّسول الكريم والقرآن الحكيم يتركّز في كونهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، فقد واصلت السّورة الحديث عن هذا اليوم من زاوية إنكار القوم واستهتارهم وندمهم ساعة لا ينفع النّدم . ويبدو أنّ الآيتين الأوليين متلازمتان ، قال تعالى : ﴿ **ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذٍ الحقّ للرّحمن * وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾ . وبما أنّ الغمام بمعنى السّحاب ، فمعنى هذا أنّ النّصف الأوّل من الآية الكريمة يتحدّث عن خضوع السّماوات للرّحمن حيث إنّها تمثّل جانب المحسوسات ذا العلاقة بالملائكة الّذين طلب الكافرون استهزاءً أن يروا في الحياة الدّنيا . وخضوع السّماوات للرّحمن دليلٌ على خضوع سواها بطبيعة الحال وانفراد ذي الجلال والإكرام ذلك اليوم بالمُلْك الحقّ . فما معنى تشقّق السّماء بالغمام ؟ وأوّل ما ينبغي التّنويه به هو أنّ السّماوات والأرض ستتبدّل في ذلك اليوم العصيب . قال تعالى[1] : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات وبرزوا اللّه الواحد القهّار** ﴾ . فهل يمكن أن يُفْهَمَ ضمناً أنّ الغرض في ذلك اليوم من الغمام يختلف عن الغرض منه في الحياة الدّنيا وأنّ الغمام ذاته وليد ذلك التّبدّل للسّماوات والأرض فهو من متمّمات الملابسات الموحية بجلال ذلك اليوم وهيبته ؟ ربّما ، فاللّه تعالى أعلم بالمراد .

ويمكن أن يفهم من السّياق أنّ السّماء في ذلك اليوم تتشقّق بسبب ذلك الغمام وينزّل الملائكة بأمر ذي الجلال والإكرام تنزيلاً يليق بهيبة الموقف وصرامة الحساب . وحيث إنّ نزّل وأنزل بمعنى واحد إذْ

---

(١) سورة إبراهيم ، ٤٨ .

التّضعيف مرادفٌ للهمزة[1] لذا جاء في الآية المصدر تنزيلاً بدلاً من إنزالاً ، مراعاة لنغمة الفاصلة الغالبة . وينبغي أن يكون نزول الملائكة مروّعاً لقلوب الكافرين الّذين استهانوا بالملائكة في الحياة الدّنيا . وينبغي أن يكون ذلك اليوم الذي يتفرد فيه الواحد القهّار بالمُلْك الحق عسيراً عليهم جدّاً ، حيث يتناول كلّ واحدٍ كتاب عمله الّذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلّا أحصاها ، فيعلم علم اليقين نوع الجزاء الّذي يستحقّ وفق عمله الّذي قدّم . وكفى بنفس الإنسان شهيداً عليه في ذلك اليوم الّذي لا يبدّل فيه القول ولا يظلم فيه أحد . قال تعالى : ﴿ **ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذٍ الحقّ للرّحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾ . وينبغي أن يكون للفظ الرّحمن ـ المأخوذ من الرّحمة ـ وزنه إزاء وصف ذلك اليوم بشأن منكري البعث بأنّه يومٌ عسير .

وما الّذي يملك الكافر في ذلك اليوم الّذي يتفرّد فيه ذو الجلال والإكرام بالملك ؟ لا يملك سوى النّدم الّذي يعبّر عنه قولاً وعملاً أشدّ النّاس عجزاً وأقلّهم حيلة . قال تعالى : ﴿ **ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني * وكان الشّيطان للإنسان خذولاً** ﴾ .

لقد جرت العادة حينما يتمكّن النّدم من شخصٍ مّا أن يعضّ إصبعه ، وعلى وجه الدقّة رأس الإصبع . وقد نتسامح في التّعبير دليلاً على شدة النّدم فنستخدم لفظة الأصابع ـ ونحن نريد رؤوس الأنامل ـ الّتي توهم بأنّ العضّ كان من نصيب الأصابع كلها . وقد نتجاوز ذلك

---

(١) البحر المحيط ، ٦/٤٩٦ .

إلى استعمال لفظة اليد ، وكأنّ العضّ لم يقتصر على الأصابع إنّما تجاوزها إلى كُلِّ ما جاورها . فكيف إذا كان التّعبير شاملاً لليدين معاً وكأنّ العضَّ من نصيب كلٍّ بالتّناوب دليلاً على النّدم الّذي ليس عليه من مزيد . وهذا هو الّذي فعلته الآية الكريمة الّتي توحي بأن الظّالم يأتي بالعضّ على كلِّ أجزاء يديه ، مترجماً بذلك العمل عن الألم النفسيّ المتمكّن منه . وينبغي أن يكون لحرف الجرّ « على » من قوله تعالى : ﴿ **على يديه** ﴾ أكبر الدّور في التّعبير عن رغبة العاضّ الأكيدة في الانتقام من نفسه ، لدلالة هذا الحرف على الاستعلاء .

وما قيمة النّدم والأسى والحسرة والاعتراف بالخطأ ؟ لا قيمة لشيءٍ من ذلك بعد فوات الأوان . وأين الأخلاّ ، الّذين أظهروا في الدّنيا المودّة للظالم نفسه والظّالم أولياء اللّه تعالى ؟ أين إبليس اللّعين ذو الوعود المعسولة المكذوبة . الكلّ يتخلّى ويخذل ولا ينفع الإنسان إلاّ عمله الصّالح الّذي امتنّ اللّه تعالى بقبوله ولا يشفع إلاّ من أذن اللّه تعالى له ورضي عنه . أمّا الأخلاّء فقد جاء عنهم مثلاً قوله تعالى[1] : ﴿ **الأخلاّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتّقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ . كلُّ أصدقاء الدّنيا على الشّرور والآثام أعداء في الآخرة لأنّ كلّ واحدٍ سببٌ في صرف الآخر عن الخير والصّدّ عن سبيل اللّه . وأمّا الشّيطان الخذول فقد جاء على لسانه مثلاً قوله تعالى[2] : ﴿ **وقال الشّيطان لمّا قُضي الأمر إنّ اللّه وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ * إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل * إنّ الظّالمين**

---

(١) سورة الزّخرف ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة إبراهيم ، ٢٢ .

لهم عذابٌ أليم﴾ .

وتأمّل مظاهر القول المتلاحقة الّتي تجري على لسان الظّالم نفسه والآخرين حالة كونه يعضّ على يديه لفرط النّدم : ﴿ **يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني * وكان الشّيطان للإنسان خذولاً** ﴾ إنّ جنس الرّسل واحد . وجنس الإنسان الظّالم الّذي أضلّه الشّيطان وخذله واحد . لذا فإنّ موقف الخزي هذا سيكون من نصيب كلّ الّذين كذّبوا رسلهم .

وينبغي أن يكون وصف العاضّ على يديه بأنّه ظالم والقول على لسانه : ﴿ **يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً** ﴾ قادرَيْن بشأن كفّار مكة على تذكيرنا بقوله تعالى في هذه السّورة عن الظّالمين : ﴿ **وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ لقد ضلّت بالظّالمين السُّبل فقالوا عن الرّسول الكريم إنّه ساحر وشاعر وكاهن وكاذب ومجنون ، وضلّ عنهم أقوم سبيل دعاهم إليه الرّسول الكريم وقدّم لهم كُلَّ الإثباتات على صحّة دعوته ، وفي مقدمتها القرآن الكريم كلام ربّ العالمين . وقد تمّ ذلك الضّلال لأنّهم جعلوا أهواءهم آلهتهم وأصغوا لأنفسهم الأمّارة بالسّوء ولإخوانهم في الضّلال .

وتأمّل جملة جاء في قوله تعالى على لسان الظّالم : ﴿ **لقد أضلّني عن الذّكْرِ بعد إذ جاءني** ﴾ إنّ هذه الجملة لها القدرة على الإيحاء بقرب العهد بما جاء ، وبكونه فعلاً قد جاء ، على نحو ما يفهم من المعنيين المختلفين لجاء وأتى في مثل قوله تعالى في هذه

السّورة[1] : ﴿ **ولا يأتونك بمثلٍ إلاّ جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً** ﴾ وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السّلام خطاباً لأبيه[1] : ﴿ **يا أبت إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك** ﴾ وقوله تعالى على لسان قوم موسى خطاباً لـه عليه السّلام[2] : ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ .

فالظّالمون المكّيّون مثلاً يتمثّلون تماماً دعوة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وتلاوته للقرآن الحكيم معجزة هذا الدّين الكبرى الخالدة ، ويتمثّلون جيّداً موقفهم الرّافض لكلّ خير . وها هم أولاء يصغون ، في ذلك اليوم العصيب ، للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو يقدّم لربّه شكواه من انصرافهم عن الذّكر وهجرهم للقرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ **وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ . إنّ هذه الشّكوى مقوّيةٌ لتصوّر الظّالمين لموقفهم في الدّنيا الرّافض للدّين الّذي ارتضى اللّه تعالى لعباده . وفيها عزاءٌ وتسليةٌ للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلم إذ إنّ هذه الآية المكيّة تنزل على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلّم برداً وسلاماً في تلك الأيّام العصيبة على الفئة المؤمنة . والحقيقة أنّ الإفاضة في وصف حالة الظّالمين الكئيبة يوم القيامة ، فيها تسلية غير مباشرة له عليه الصّلاة والسّلام ، بالإضافة إلى إنذار هؤلاء الظّالمين . وتبدو التّسلية أشدّ وضوحاً في الآية الّتي جاءت على لسانه صلّى اللّه عليه وسلّم شاكياً إلى ربّه هجر قومه للقرآن الحكيم ، وكذلك في الآية التّالية الّتي تتحوّل بالكلّيّة إلى الحياة الدّنيا وتتحدّث عن العداوة الفطريّة من المجرمين لأنبياء اللّه تعالى . إنّ هذه هي سنة اللّه تعالى الّتي انتظمت كفّار مكّة أيضاً ، فكلّ شيء إذن يتمّ بعلم اللّه تعالى وإذنه بما في ذلك موقف كفّار مكّة آنذاك من الرّسول الكريم

---

(١) آية ، ٣٣ . (٢) سورة مريم ، ٤٣ . (٣) سورة الأعراف ، ١٢٩ .

والقرآن الحكيم والدّين الّذي ارتضى اللّه تعالى لعباده . وتتحوّل التّسلية فيما وراء ذلك إلى تثبيتٍ للفؤاد صريح كما سنرى .

ونود في حقيقة الأمر أن نشير إلى قدرة الآيات التصويريّة . فكأنّ هذه المشاهد قد وقعت بالفعل . ولجملة كان دورٌ بارزٌ في ذلك : ﴿ **وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾ ﴿ **وكان الشّيطان للإنسان خذولاً** ﴾ . وجملة اتّخذوا قادرة ، بطبيعة الحال على أن تنسحب على الحياة الدّنيا . فكأنّ هذه الشّكوى يجأر بها المصطفى صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، لأنّ هذا هو واقع قومه أثناء نزول السّورة الكريمة .

ونود أيضاً أن نقف عند طبيعة الكلام الّذي يجري على لسان الرّسول الكريم . إنّه يتعلّق بالقرآن الكريم كلام ربّ العالمين ، وبذلك هو قادرٌ على أن يعيّن المراد بالذّكر بشأن الأمّة المحمديّة ، إنّه القرآن الكريم الّذي هجره كفّار مكّة . وهو كلامٌ يفوح منه شذى تواضعه صلى اللّه عليه وسلم العبد الشّكور لمولاه . إنّه لا يجيء على لسانه شيءٌ من القول عن شخصه الكريم إنّما القول بأنّ قومه اتّخذوا كلام ربّ العالمين مهجوراً . وينبغي أن يكون لاسم الإشارة « هذا » الدّالّ على القرب، دورٌ في الدّلالة على لصوق هذا القرآن بفؤاد خير خلق اللّه كلّهم ، بينما هجر هذا القرآن الظّالمون ، فتبّاً لهم وَتَعْساً . وعن مظاهر هجر قوم الرّسول الكريم القرآن الحكيم حَدِّثْ ولا حرج ، وفي إمكانك أن تلقي نظرةً سريعةً على السّيرة النبويّة ، كي تقف على الحقيقة القائمة من أنّ على قلوب القوم أقفالها ، والعياذ باللّه .

وشكوى الرّسول صلى اللّه عليه وسلم تجعل كفّار مكّة يفهمون أنّهم هم المقصودون من سرد كلّ هذه المشاهد ليوم القيامة وأنّ لهم نصيبهم غير المنقوص من الكلام الّذي جرى أو يجري على ألسنة الظّالمين في ذلك اليوم العصيب : خاصّة وأنّ الآية الكريمة تشتمل

على لفظة الرّسول الّتي سبق أن جاءت على لسان الظّالم النادم . ولا ننسى أنّ لفظة الذّكر ، الّتي تعني القرآن الكريم ضمن ما تعنى ، قد جاءت على لسان الظّالم أيضاً .

وقد صدّرت الآية الكريمة جملة : ﴿ **قال** ﴾ لثبوت حدوث هذه الشّكوى فكأنّها قد تمّت فعلاً . وهذه الآية بمثابة الشّهادة من ربّ العزة بأن الرّسول الكريم قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة . فنحن بصدد تسلية ، يمكن أن يقال عنها إنّها غير مباشرة ، للرّسول الكريم . وقد تلا ذلك تسليةٌ وتثبيت : قال تعالى : ﴿**وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين ، وكفى بربّك هادياً ونصيراً**﴾ .

والآية الكريمة تشير إلى أنّ موقف الكفّار المناوىء لدعوة الحقّ ، امتدادٌ لسنّة اللّه تعالى أن يكون لكلّ نبيٍّ عدوٌّ من المجرمين ، يرفضون دعوة الحقّ بعنف ويضعون في طريقها كلّ العراقيل ويعملون بكلّ الوسائل على لحدها في مهدها ، كما تشير إلى أنّه امتدادٌ لهذه السّنّة أيضاً أن يُهْزَم المجرمون دائماً ويولُّوا الدُّبر وأن ينتصر عباد اللّه تعالى أخيراً بعد أن تكون الفئة المؤمنة قد قدّمت أوّل الأمر ، راضيةً مطمئنةً ، الكثير من النفائس ، والكثير من الأنفس الّتي هداها اللّه تعالى سبل الرّشاد . وينبغي أن يكون الخطاب في قوله تعالى : ﴿ **وكفى بربّك هادياً ونصيراً** ﴾[1] الموجّه للرّسول الكريم ، أكبر تسلية له صلى الله عليه وسلم وللفئة المؤمنة ، وأعظم عونٍ وتأييد ، وما الّذي يمكن أن يفعل أولئك المجرمون ما دام اللّه تعالى في صفّ عباده . إنّهم مهما يفعلوا فالخذلان غايتهم والذّلّ والهوان نهايتهم .

---

(١) يلاحظ ارتقاء ظاهرة تلاؤم الأصوات في الجزئيّة الكريمة إلى درجة موافقتها شطراً من بحر الكامل :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

والآية الكريمة تعتبر الأسوة الحسنة لكلّ حامل دعوةٍ من أمّة الإسلام . فما دام الإخلاص في العمل والتّضحية بكلّ غالٍ دأب أصحاب الدّعوة ، والرّغبة في الخير ورضا اللّه تعالى هي الغاية المنشودة ، فإنّ اللّه تعالى متكفّلٌ بهداية أفراد الدّعوة سبيل الهداية وضامنٌ لهم النّصر في المدى القريب أو البعيد . قال تعالى[1] : ﴿ **والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ اللّه لمع المحسنين** ﴾ وقال تعالى[2]: ﴿ **وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

الرّدّ على الحضّ بأن ينزل القرآن الكريم جملةً واحدة :

تبيّنّا بشأن الآيات الثلاث الأخيرة من القسم الأوّل من السّورة أنّها تتعلّق باتّهامات كفّار مكّة للقرآن الحكيم والرّسول الكريم والرّدّ عليهم وتبيّنّا بشأن الآيات الأخيرة من الردّ الرّابع على الاعتراضات أنّها تتعلّق أيضاً بالقرآن الحكيم وبالرّسول الكريم . فإنّ لفظة الذّكر بشأن كفّار مكّة الّذين يوجّه الإنذار إليهم بالدّرجة الأولى ، تعني القرآن الكريم . وإنّ شكوى الرّسول قومه بسبب هجرهم لهذا القرآن . وإنّما وصف القوم بالإجرام بسبب موقفهم المعروف من الدّين الّذي ارتضى اللّه تعالى لعباده والّذي بعث من أجله الرّسول الكريم وأنزل عليه القرآن الحكيم . إنّ هذه الأسباب مجتمعة ، تهيّىء للسّياق في هذا القسم الّذي يهتمّ بدحض اعتراضات الكافرين أن يدحض اعتراضاً باقياً للكافرين ، يتّصل هذه المرّة بالطّريقة الّتي نزل فيها القرآن الكريم على

---

(١) سورة العنكبوت ، ٦٩ .

(٢) سورة النّور ، ٥٥ .

النبيّ صلى اللّه عليه وسلم . وعلى عادة القرآن الكريم ، لا يقف عند الرّدّ مجرّداً ، إنّما يتوسّع في عرض جوانب الاعتراض كعادته ، ثمّ يكرّ عليها في طريقته المعجزة بالتّفنيد والدّحض . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة . كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثلٍ إلاّ جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً** ﴾ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة الأولى ، بين يدي عرض اقتراح الكافرين ، تصفهم بالكفر ، وذلك بمثابة التّعليل للضّلال الّذي هم فيه سادرون . وإذا كان القوم قد سبق لهم أن رفضوا القرآن الكريم جملةً وتفصيلاً ، فإنّهم الآن يعترضون على طريقة نزوله . لماذا ينزل القرآن الكريم مفرّقاً ولا ينزل جملةً واحدة كالتّوراة والإنجيل ؟ وردّاً على إنكار نزول القرآن الكريم مفرّقاً . تشير الآية الكريمة إلى أهمّ حكمةٍ مناسبةٍ لتلك المرحلة من تاريخ الدّعوة الإسلامية ، ألا وهي تثبيت فؤاد المصطفى صلى اللّه عليه وسلم . وإنّ المتمثّل لموقف الرّسول صلى اللّه عليه وسلم آنذاك في مكّة ، والضّنك الشّديد الّذي هو فيه ، بسبب موقف الكافرين المناوىء للدّعوة وإساءتهم البالغة للفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك ، يدرك شيئاً من قيمة انتقاء الآية الكريمة لهذه الحكمة بالذّات ، خاصّةً وأن هذه الآية الكريمة والنّصّ على التثبيت ، بمثابة التّطبيق العمليّ لحكمة جليلة . فما أروع هذا الرّدّ الّذي يجمع في آنٍ واحدٍ بين النّاحيتين النّظرية والتّطبيقيّة .

ولعلّنا لاحظنا أنّ الرّدّ على الاقتراح يجيء حالاً دون تأنٍ ولا تراخٍ ، ولهذه الطّريقة أكثر من نظير فيما سبق . وإنّما يكون الرّدّ سريعاً حينما يقتضي الموقف ذلك بسبب كون الاعتراض أو الاقتراح ظاهر

الخطأ واضح البطلان . وإنّما يكون الرّدّ على مجموعة الاعتراضات والاقتراحات فيه شيءٌ من التّراخي والتفصيل ، حينما يراد كشف خبث طويّة الكافرين وكيدهم ، إذ يقترحون ويطلبون ما قد يظنّ للوهلة الأولى أنّ مثله ممّا يُقْتَرَح ويطلب ، ويتبيّن من الرّدّ التفصيليّ أنّ القوم في جلّ أمورهم لاهون عابثون بينما الموقف يتطلّب كلّ صرامةٍ وجدّ ، ماكرون مخادعون ، ويجهلون أنّهم إنّما يمكرون بأنفسهم ولها يخدعون . هل القوم جادّون كلّ الجدّ في اعتراضهم على كون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ؟ هل القوم جادّون في طلبهم أن ينزل عليهم الملائكة أو أن يروا ربّهم جلّ وعلا ؟ هل القوم جادّون في وصفهم الرّسول الكريم بأنّه ساحر ؟ إنّ القوم باختصار ضالّون ماكرون . أثبت الرّدّ المباشر ذلك ، وأثبت الرّدّ التفصيليّ ذلك أيضاً ، إذ بيّن أن الاعتراضات والاقتراحات لا موضع لها أصلاً . فلماذا لم يُثِرْ واحدٌ من المؤمنين قضيّة واحدة كهذه وهُمْ من هُمْ ذكاءً وإحاطة وفصاحة .

ولا تقف الآية الكريمة عند الحكمة من إنزال القرآن الكريم مفرّقاً ، إنّما تضيف إلى ذلك الوسيلة الّتي يكون بها التثبيت أشدّ رسوخاً ، ألا وهو الوضوح والبيان ونصاعة الحجّة وجمال العرض ، بحيث يملك القرآن الكريم من الإنسان العاقل المنصف زمام قلبه وعقله ، فلا يملك إلاّ أنْ يَعْمل بمقتضاه ويتمشّى بموجبه . إنّ القرآن الكريم المعجز بمعناه ومبناه ، حينما ينزل مفرّقاً فذلك أدْعى لأن يُسْتوعب معناه ويرتّل مبناه ترتيلاً يليق بمكانته . وقد آتت هذه الحكمة أُكُلَها إذ جمع الصّحابة رضوان اللّه تعالى عليهم بين العِلْم والعَمَل ، وكان الواحد منهم إذا قرأ البقرة وآل عمران ، بالمعنى الّذي أوضحنا والّذي يجمع بين العِلْم والعمل ، جَدَّ في أعينهم على حدّ تعبير البعض منهم رضوان اللّه تعالى عليهم . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين كفروا لولا**

نـزّل عليـه القـرآن جملة واحـدة * كـذلـك لنثبت بـه فؤادك ورتّلنـاه ترتيلاً ﴾ .

ومع أنّ كفّار مكّة لا يخفى عليهم موقع القرآن الكريم من عقولهم وأفئدتهم ، بدليل أنّهم لا يستطيعون إلّا بعد لأي وتحت ضغط الظّروف القاهرة ، أن يمتنعوا عن الإصغاء للرّسول الكريم يرتّل القـرآن ترتيـلاً ، فـإنّ أهواءهم هي الّتي تسيّـرهم . فبما أنّ الـدّين الجديـد يحـول بينهم وبين أن يـرتعـوا في هـذه الحيـاة كـالأنعـام الّتي لا تحـرص على غيـر الاستمتـاع ، لـذا اختـرعـوا الكثيـر من الأبـاطيـل ضـدّ القـرآن الحكيم والرّسول الكريم بقصد صرف النّاس عن الدّين الحقّ الّذي ارتضى اللّه تعالى لعباده . فليس القرآن الكريم ـ وفق اتهاماتهم ـ سوى كلام رجـلٍ ساحرٍ وكاهنٍ وشاعرٍ وكاذبٍ ومجنـون ـ كبرت كلمـة تخرج من أفـواههم إن يقولون إلّا كـذباً ـ والعجيب أنّ القـوم لا يستحيون من الكـذب على اللّه تعالى وعلى رسولـه ، والعجيب أيضاً أنّهم لا يستقـرّون على اتّهامٍ واحدٍ ولا افتراء . ومع أنّ الحقّ أبلج واضح فإنّ القرآن الكـريم قد فنّـد كلّ اتّهامٍ للقوم على حدة ، وثبت من أسلوبه ومضمونه المعجزين ، أنّه كلام ربّ العالمين ، لا يستطيع الثّقلان أن يأتـوا بسورةٍ واحـدةٍ من مثله فكيف يستطيع ساحرٌ واحدٌ أو كاهنٌ واحد أو شاعرٌ واحدٌ أو كاذبٌ واحد أو مجـنونٌ واحـد ! أن يـأتي بكلّ هـذا القـرآن الّـذي يستـطيـع الجـزء الصّغيـر منـه أن ينقـل هؤلاء الكـاذبين أنفسهم حينمـا يسمعـونـه ، إلى عوالمه البعيدة ودرجاته الرّفيعة . إنّ الارتكاس أسفـل سافلين أحبّ الى القوم الّذين أعمى اللّه تعالى بصائرهم ، من أن يستجيبوا لنـداء الفطرة في أنفسهم وتأنيب ضمائرهم في صدورهم وهتـاف عقولهم في رؤوسهم بـأنّ ما يسمعـون كلام ربّ العـالمين . جـاء ردّاً على هؤلاء الكـافـرين

المتحيّرين ، وتثبيتاً لفؤاد الرسول الكريم ، وتطميناً له بأنّ عناية اللّه تعالى معه دائماً ، قوله عزّ من قائل : ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

ولعلّنا لاحظنا جمال أداء الجملتين المتقاربتي المعنى كلاًّ من المعنيين وفق ترتيبهما الزّمني . فأتى تنطبق على الزّمن السّابق وجاء تنطبق على الزّمن اللاّحق . إنّ الحق هو الهدف الّذي يسعى القرآن الكريم الى إحقاقه ، ويكون ذلك عن طريق إعطاء التّعبير الصّحيح والتّفسير الحسن لكلّ مسألةٍ يعرض القرآن الكريم لها ، بحيث ينتهي كلُّ منصفٍ إلى أنّ ما تضمّنه القرآن الكريم هو الحقّ لأنّه كلام ربّ العالمين ، عالم السّرّ في السّماوات والأرض . جاء في سورة الإسراء[1] : قوله تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل** ﴾ .

يُحْشر الكافرون على وجوههم إلى جهنّم :

حينما نتأمّلُ آيات القسم الثاني من السّورة والطّريقة السّيّئة التي يعامل بها الكافرون يوم القيامة نحسّ بأنّ الحاجة باقيةٌ لأن تصوّر الطّريقةالسّيّئة الّتي يحشر فيها هؤلاء الكافرون إلى جهنّم . وقد قامَتْ آخر آيات القسم بهذه المهمّة ، قال تعالى : ﴿ **الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلاً** ﴾ . إنّ هذه الآية الّتي يختم بها المشهد ، تصوّر سوء المنقلب الّذي يؤول إليه الكافرون ، والطّريقة المهينة الّتي يتمّ بها الوصول إلى تلك النّهاية الأليمة ، حيث يحشرون على وجوههم في طريقهم إلى جهنّم ، كما تنصّ الآية على السّبب الّذي أدّى بالكافرين إلى تلك النتيجة

---

(١) اية ، ١٠٥ .

المخـزيـة ، إنّهم أضـلُّ سبيـلاً في الـدنيـا رغم بعث الـرّسـول إليهم . وينبغي أن تكـون النتيجة من جنس العمـل ، والنهايـة والغايـة من نـوع السّبيل والوسيلة . وسبق أن سجّلت الآيات الكريمة بعضاً من مظاهر ضلال السَّبيل ، وستعود مرَّة أخرى إلى تسجيل البعض الآخر من المظاهر . وينبغي أن تكون لفظة « السّبيل » الّتي جاءت في السّورة مرّات عدّة ، قد لفتت أنظارنا وشدّت انتباهنا الى ضرورة هجر القوم للسُّبل الضّالّة الّتي فيها يسيرون إلى سبيل الرّسول الكـريم ، كلٌّ وفق طـاقته واستعـداده ، وإلاّ كان النّدم يوم القيامة على غرار تمنّي البعض : ﴿ **يـا ليتني اتّخذت مـع الرسول سبيلاً** ﴾ كما ينبغي أن يكون في تلاحق مشاهد الخزي والهوان بالنّسبة للكافرين التفسيـر الشّافي والتّعليـل الكافي لمجيء لفـظة النّذيـر مفردة في الآية الكريمة الأولى من السّورة . ﴿ **تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ اذ لـم يجيء عن أصحاب الجنّة إلاّ القليل المعمّق ـ عن طريق المقارنة والتّضادّ ـ لحسرة الكافرين وتـألّمهم يوم القيامة إن لم يهجروا سبيل الضّلال حالاً .

القسم الثالث

الذين لا يرجون النّشور
لا يسمعون ولا يعقلون

جنحت السّورة الكريمة في القسم التّالي إلى الإنذار . وكان التّعامل مع كفّار مكّة الّذين لا يسمعون سماع تدبّر ولا يعقلون إنّما اتّخذوا أهواءهم آلهتهم فهم كالأنعام بل أضلّ سبيلاً . لأنّ الأنعام تعمل وفق مصلحتها وهؤلاء يعملون ضدّ مصالحهم . وقد عرض القسم لعدد من الجماعات الّتي دمّرها اللّه تعالى تدميراً بعد أن أنذرها فلم تُغن النُّذر . وحيث إنّ موقف كفّار مكّة مشابهٌ لمواقف أولئك الأقوام فمعْنى هذا أنّ النّهاية يمكن أن تكون واحدة ، خاصّةً وأنّ القوم يمرّون بالقرية الّتي أمطرت مطر السّوء ويرونها بأبصارهم وليس ببصائرهم ، فتساوي أن يروا وألّا يروا لأنّهم باختصارٍ لا يرجون نشوراً . قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً . * فقلنا اذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا * وقوم نوح لمّا كذّبوا الرّسل أغرقناهم وجعلناهم للنّاس آية واعتدنا للظّالمين عذاباً أليماً * وعاداً وثمود وأصحاب الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيراً * وكلًّا ضربنا له الأمثال وكلًّا تبّرنا تتبيراً * ولقد أتوا على القرية الّتي أمطرت مطر السَّوْء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً * وإذا رأوك إن**

يتخذونك إلاّ هزواً * أهذا الّذي بعث اللّه رسولاً * إن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها * وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً * أرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه * أفأنت تكون عليه وكيلاً * أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾ .

وأوّل ما نودّ الوقوف عنده العرض المنطقيّ البديع للأقوام الّذين دمّرهم اللّه تعالى تدميراً . لقد كانت الإشارة أوّلاً إلى موسى عليه السّلام وقومه لقوّة الشّبه بملابسات الدّعوة الإسلاميّة ، ومن أهمّ هذه الملابسات أنّ كلاًّ من الرّسولين الكريمين قد منَّ اللّه تعالى عليه بكتابٍ سماويّ . وكانت الإشارة أخيراً إلى قوم لوط عليه السّلام ، لأنّ آثار القوم الحسيّة الدّالّة على انتقام اللّه تعالى منهم هي من الآثار القليلة الباقية الّتي يمرّ بها كفّار مكّة في رحلاتهم إلى الشّام مصبحين وباللّيل ، وبالتّالي هم يستطيعون أن يحصلوا على العظة والاعتبار لو أنّهم كانوا يعقلون . ولهذا الغرض ذُكرت حادثة القوم المُتميّزة في نهاية سياق مصارع الأمم .

وبعد أن تمّت الإشارة إلى أَوْلى الأمم بالذّكر ابتداءً ، وهم قوم موسى عليه السّلام ، راعى السّرد في التّرتيب الجانب التّأريخيّ . فنوحٌ عليه السّلام أوّل رسل اللّه تعالى إلى بني آدم . وعادٌ يسبقون ثمود . وقياساً على ذلك نظنّ أنّ أصحاب الرّسّ - وهي البئر غير المطويّة - ينبغي أن يكونوا متأخّرين زمناً . وبسبب الزّمن المتراخي بين الجماعات ، جاءت الإشارة الّتي تملأ كلَّ الأزمنة ، قال تعالى : **﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾** .

وبعد هذه الإشارة العابرة نعود إلى شيء من بسط القول .

لقد جاء بشأن موسى عليه السلام وقومه قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً * فقلنا اذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً** ﴾ . إنّ الحديث عن موسى عليه السّلام وقومه يكتفي بالقدر الّذي يخدم غرض السّورة الكريمة وهو الإنذار ، تمشّياً مع هذا المعنى الّذي أشارت إليه الآية الأولى من السّورة . لقد اكتفى السّياق بذكر الطّرفين المتباعدين للقصّة الطّويلة . الطّرف الأوّل يتمثّل في إرسال موسى عليه السّلام بالتّوراة إلى قومه نذيراً ومعه أخوه هارون وزيراً . والطّرف الثّاني يتمثّل في ذكر نتيجة التّكذيب . وقد عرفنا في غير هذا الموضع أنّ هارون عليه السّلام قد غدا نبيّاً ، إكراماً من اللّه تعالى لموسى عليه السّلام ـ وهو من أكبر أنبياء بني إسرائيل ـ الّذي طلب منه عزّ وجلّ أن يُرسل معه أخاه هارون وزيراً . جاء في سورة مريم[1] مثلاً قوله تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مُخْلَصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطّور الأيمن وقرّبناه نجيّاً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً** ﴾ وقد كذّب القوم كلّ آيات اللّه تعالى الدّالّة على وحدانيّته عزّ وجلّ وقدرته ، سواءٌ في ذلك الآيات الّتي يتبيّنها العاقل المنصف بدافعٍ ذاتيّ والّتي توجد في كلّ شيء بدون استثناء ، والآيات المادّيّة والمعجزات الحسّيّة الّتي أجراها اللّه تعالى على يد موسى عليه السّلام . لقد استخفّ فرعون قومه فأطاعوه وكذّبوا موسى عليه السّلام وجحدوا آيات اللّه تعالى ، تماماً كما يفعل كفّار مكّة ، فدمّر اللّه تعالى فرعون وقومه تدميراً .

أمّا قوم نوحٍ عليه السّلام ، أوّل رسولٍ بعثه اللّه تعالى إلى

---

(١) آيات ، ٥١ ـ ٥٣ .

البشر ، فإنّهم كذّبوا نوحاً عليه السّلام الّذي ظلّ يدعوهم إلى اللّه تعالى ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً ، وما آمن له عليه السّلام إلّا قليل ، هم اثنا عشر شخصاً مسلماً فقط[1] وحيث إنّ دعوة رسل اللّه تعالى واحدةٌ والفترة الّتي ظلّ نوحٌ يدعو فيها قومه طويلةٌ طولاً غير عاديّ ، لذلك حسن أن يستعمل في الآية الكريمة لفظة الرّسل . ﴿ **وقوم نوحٍ لمّا كذّبوا الرّسل أغرقناهم** ﴾ . وكون قوم نوحٍ عليه السّلام آية للنّاس ، لأنّ ما حدث لهم بالإغراق كان معلوماً للنّاس ، ولأنّه يمكن أن يحدث كلّ لحظة . وما أشدّ الشّبه بين السّفينة الّتي تحتاج دائماً وأبداً ، وهي تتقاذفها الأمواج ، إلى عناية اللّه تعالى ورعايته ، وبين الإنسان ذاته الّذي يحتاج دائماً وأبداً ، وهو يمخر عباب الحياة ، إلى تلك العناية والرّعاية الإلهيتين . إنّ الآية قائمةٌ دائماً ما دام الإنسان يرتقي سفينة الماء أو سفينة الحياة . فعلى كلّ إنسان أن يفطن جيّداً إلى الغاية الّتي خُلق من أجلها وإلّا فإنّ عاقبة الظّالمين معروفة . جاء في سورة يس[2] قوله تعالى : ﴿ **وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفُلْك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلّا رحمة منّا ومتاعاً إلى حين** ﴾ . إنّ آية سفينة نوح عليه السّلام ذات شقين . الشّقّ الّذي نال الظّالمين ، وقد نبّهت إليه آية الفرقان ، إذ كانوا خارجها ولم يكن لهم من اللّه تعالى من عاصم حيث شاء لهم الغرق . والشّقّ الثّاني الّذي نال المؤمنين حيث إنّهم كانوا داخلها ، وقد أنقذهم اللّه تعالى بواسطتها . وكلّ من على ظهر البسيطة من البشر والمخلوقات ، من سلالة الّذين ركبوا السّفينة ، وإنّ

---

(١) فقه الدعوة ص ٣٨ اختارها من ظلال القرآن أحمد حسن ، الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

(٢) آيات ، ٤١ ـ ٤٤ .

واجب البشر في كلّ زمانٍ ومكان أن يقدروا نعمة اللّه تعالى عليهم الّتي أنقذت آباءهم بواسطة السّفينة التي أوحى اللّه تعالى لنوحٍ عليه السّلام أن يعمل ، والّتي أحاطت بها العناية الإلٰهيّة وهي تجري في موجٍ كالجبال . إنّ السّفينة ذاتها غير كافيةٍ لإنقاذ من فيها لو لم تحطها العناية الإلٰهيية إلى أن استوت على الجوديّ سالمةً وقيل الحمد للّه ربّ العالمين .

وإنّ كلّ الأمم الّتي أهلك اللّه تعالى قد بعث إليها رسله مبشرين ومنذرين . قال تعالى(١) : ﴿ **وإن من أُمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذير** ﴾ وكان المتأخّرون ينذرون بما أصاب السّابقين ، وتضرب لهم الأمثال العديدة كي يتدبّروا ويصحّحوا من أخطائهم ، ولكنهم كانوا يصرّون دائماً على مواقفهم السّيّئة . وها هي ذي الأمثال ذاتها تضرب لكفّار مكّة ، ولا يبدو أنّهم يريدون أن يغيّروا من تعنّتهم ويوشك أن يحل بهم عذاب اللّه تعالى .

ومن أكبر الأدلّة على أنّ كفّار مكّة لا يستفيدون من الآيات والنُّذر ، هو أنّهم في أثناء سفرهم كانوا يمرون ببقايا قرية سدوم الّتي كان يقطنها قوم لوط عليه السّلام الّذين دمّرهم اللّه تعالى تدميراً بسبب تكذيبهم رسول اللّه تعالى إليهم ، ومع ذلك هم لا يستفيدون من ذلك المنظر الفاجع الّذي آلت إليه قريتهم بعد أن جُعِلَ عاليها سافلها وأُمْطِرَ القوم حجارة من سجيل وقد أشارت سورة الحجر(٢) إلى ذلك في شيء من تفصيل مع التنبيه إلى ضرورة الاتّعاظ ممّا حدث للقوم وبخاصّة أثناء المرور بديارهم . قال تعالى : ﴿ **فلمّا جاء آل لوطٍ المرسلون * قال**

---

(١) سورة فاطر ، ٢٤ .
(٢) آيات ، ٦١ ـ ٧٧ .

إنّكم قومٌ منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحقّ وإنّا لصادقون * فَأَسْر بأهلك بِقِطْع من اللّيل واتَّبعْ أدبارَهُمْ ولا يلتفت منكم أحدٌ وامضوا حيث تؤمرون * وقضَينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوعٌ مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إنّ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتّقوا اللّه ولا تُخْزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لَعَمْرُك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتْهُمُ الصَّيحة مشرقين * فجعلنا عالِيها سافلها وأمطرنا عليهم حِجارةً من سِجّيل * إنّ في ذلك لآياتٍ للمتوسّمين * وإنّها لَسَبيل مقيم * إنّ في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ . وجاء في سورة الصّافّات[1] قوله تعالى : ﴿ وإنّ لوطاً عن المرسلين * إذ نجّيناه وأهله أجمعين * إلّا عجوزاً من الغابرين * ثمّ دمّرنا الآخرين * وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين * وباللّيل أفلا تعقلون ﴾ .

أمّا أهمّ سبب يحول بين كفّار مكّة وبين أن يستفيدوا ممّا يبصرون أو يسمعون ، فهو أنّهم لا يؤمنون أساساً بالبعث والنشور . قال تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية الّتي أمطرت مطر السَّوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ .

وما الفائدة من رؤية القوم القرية الّتي دمّرها اللّه تعالى ما داموا لا يعرفون سبب ذلك التّدمير أو لا يصدّقون أنّ انحراف القوم عن جادّة الصّواب هو السّبب . ولهذا جاء في الآية الكريمة هذا الاستفهام التّعجّبي : « أفلم يكونوا يرونها ؟ » هم يرونها بأبصارهم فقط وليس ببصائرهم وذلك هو المهمّ . وحيث إنّه ليس ثمّة تصديق بأنّ بعد الموت نشوراً ، فليس ثمّة أدنى اعتبار ليوم القيامة ، لا من جهة الرّجاء

---

(١) آيات ، ١٣٣ - ١٣٨ .

ولا من جهة الخوف . جاء في البحر المحيط[1] : « وضع الرّجاء موضع التّوقع لأنّه إنّما يتوقّع العاقبة من يؤمن . فمن ثمّ لم ينظروا ولم يتفكروا ومرّوا بها كما مرّتْ ركابهم . أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم الى ثواب أعمالهم . أو لا يخافون على اللغة التّهاميّة » .

ومن الأدلّة الواقعيّة على ضلال سعي القوم وحيرتهم لعدم إيمانهم بالبعث والنّشور ، ما يتورّطون فيه بحقّ الرّسول الكريم من تناقض واضطراب إزاء ما يلحقون به من صفاتٍ متناقضة . إنّهم من ناحيةٍ يهزؤون من كونه صلّى اللّه عليه وسلّم ، هو بالذّات رسول ربّ العالمين . وهم من ناحيةٍ أخرى يعترفون بأنّه صلّى اللّه عليه وسلّم كاد يحملهم على أن يُقْلِعوا عن عبادة آلهتهم الّتي ما أنزل اللّه تعالى بها من سلطان . وهل الّذي بلغ به إخلاصه لما اصطفِي به الدّرجة الّتي كاد يحمل معها عابدي أهوائهم ، باعترافهم ، على أن يتحوّلوا الى الصّراط المستقيم ، يستحقّ أن يهزأ منه ويُسْخر به ؟ لا بطبيعة الحال . وإن السّبب في ضلال السّبيل عدم الإيمان بالنّشور ، وقد تعدّدت الإشارات في السّورة الى ضلال القوم السّبيل . قال تعالى : ﴿ **وإذا رأوك إن يتّخذونك إلاّ هزواً أهذا الّذي بعث اللّه رسولاً * إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً** ﴾ .

هذه هي عادة القوم ، كلّما أبصروا المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم هَزؤوا متسائلين في استخفاف : أهذا الّذي بعث اللّه رسولاً ؟ أهذا الرّجل الّذي ليس بواحدٍ من عظماء القريتين هو الّذي اختاره اللّه

---

(١) ٦/٥٠٠ .

تعالى رسولاً ؟ أهذا الإنسان الفقير بالذّات هو الّـذي ينتقي من بيننا كي ينزل عليه القرآن ؟ ولماذا هذا الرّجل بالذّات وهذا الإنسان وثمّة من هو أكثر مالاً وجاهاً وسلطاناً ؟ إنّه من غير المعقول وغيـر المقبول أن يُعْـطي الرّجل ما ليس له بأهلٍ من اصـطفاءٍ بـالرّسـالة وبـالوحي ! إنّـه إذن غير صادقٍ في كلّ ما يدّعي . وقد كفى اللّه تعالى رسوله أمـر المستهزئين ، وأنزل عليه في سورة الحجر[1] قوله عزّ من قائل : ﴿ **فاصـدع بما تؤمـر واعرض عن المشركين * إنّا كفيناك المستهـزئين * الّذين يجعلون مـع اللّه إلهـاً آخر فسـوف يعلمـون * ولقـد نعلم أنّـك يضيق صـدرك بمـا يقولون * فسبّـح بحمد ربّـك وكن من السّاجـدين * واعبد ربّـك حتّى يأتيك اليقين** ﴾ .

وإنّ اعتراف القوم بأنّ الرّسول الكريم كـاد يحمل الكـافرين على هجر آلهتهم الّتي ما أنـزل اللّه تعالى بهـا من سلطان ، شهادةٌ من العليّ الحكيم بأنّ الرّسول الكريم قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمة وجاهد في سبيل اللّه تعالى حقّ الجهاد حتّى أتاه اليقين .

وهذه الشّهادة امتـدادٌ لتثبيت فؤاده صلّى اللّه عليه وسلّم وقـد تبيّنّا أنّـه صلّى اللّه عليه وسلّم قـد أُمِر في سـورة الحجر أن يـواصـل جهـاده ويعرض عن المشركين فقد كفاه اللّه تعالى أمر المستهزئين .

والعجيب أنّ كفّار مكّة المستهزئين يفخرون بصبـرهم على آلهتهم المدّعاة ويعتبرون طريق الحقّ الّتي كادوا يتحوّلون إليها ضـلالاً : ﴿ **إن كاد ليضلّنا عن آلهتنـا لولا أن صبـرنا عليهـا** ﴾ وتبيّن الآية الكـريمة لهم

---

(١) آيـات ، ٩٤ ـ ٩٩ وانظر السّيـرة ١/٤٠٨ ـ ٤١٠ في كفـايـة الله تعـالى رسـولـه أمـر المستهزئين .

حالاً الضّلال الحقيقيّ الّذي هم فيه والّـذي سيتبيّنون على طبيعتـه حين يـرون العذاب بـأعينهم الّتي في رؤوسهم في ذلك اليـوم الّذي ينكـرون أساساً فلا يأملونه ولا يخافون : ﴿ **وسوف يعلمـون حين يرون العـذاب من أضلّ سبيلاً** ﴾ .

وما هي حقيقة الآلهة الّتي يعبد هؤلاء ويفخرون بصبرهم عليهـا ؟ إنّها أهواء القوم الذين لا يطيقون امتثـال الأوامر واجتنـاب النّواهي ، ولا يـدركون قيمـة الإنسان ولا كـرامته ولا الـرّسالـة السّاميـة الّتي هيّىء لها وخلق من أجلها . وتتجسّد هذه الأهواء في الآلهـة الّتي يعبد القـوم من دون اللّه تعالى والّتي تتمثّل في الأصنام الّتي يصنعون بأيديهم . ومعنى هذا أنّها لا تملك القـدرة على النّطق فضـلاً عمّا وراء ذلـك ، وبالتّـالي فإنّ تأثيرها لا يعدو منزلتهـا في أفئدة القـوم . أمّا أقـوال القوم وأفعـالهم فـإنّها خـاضعة لـلأهواء ، وهم ليسـوا مستعدّين لقبـول أدنى القيود الّتي تحول بينهم وبين ما يحصلون عليه ويحرصـون من متع دنيـويّة وأمجـاد شخصيّة ، ومكاسب ماديّة . وهم الّذين استغلّوا مكانـة مكّة الـدّينية في نفـوس العرب للوصـول إلى مآربهم الشّخصيّـة . فكيف ينتـظر إذن من هؤلاء أن يعتنقـوا بسهـولـة الـدّين الجـديـد الّــذي يحـرمهم من تحقيق أهوائهم ، وهم الّذين لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب . لقد نصّت الآيتـان الكريمتـان التّاليتـان على ذلك ، وهمـا تعتبران كـذلك امتـداداً لتثبيت اللّه تعـالى فؤاد حبيبـه صلّى اللّه عليــه وسلّم . قـال تعــالى : ﴿ **أرأيت من اتّخذ إلّهه هواه ، أفأنْت تكون عليه وكيلاً * أم تحسب أنّ أكثــرهم يسمعـون أو يعقلون * إن هم إلّا كــالأنعـام بــل هم أضــلّ سبيلاً** ﴾ .

فالّذي يتحكّم في القوم بنصّ الآية الكـريمة أهـواؤهم وعواطفهم

ومشاعرهم وانفعالاتهم . أمّا العقول الّتي تكسر من حدّة الأهواء وتضبط العواطف والمشاعر والانفعالات ، والّتي توزن بها الأمور وتعقد المقارنات ويتّبع الحسن لحسنه ويتجنّب القبيح لقبحه ، فإنّ القوم قد عطّلوها تماماً .

وما أقوى الشّبه بين الإنسان الّذي يُلْغى عقله ويتّبع هواه وبين الأنعام الّتي لا عقول لها أساساً . إنّ الأهواء والمنافع الشخصيّة هي الّتي تسيّر كلا منهما . ولو أنعمنا النّظر في موقف الإنسان الّذي ألغى عقله لانتهينا إلى أنّه أضلّ من الأنعام سبيلاً . لماذا ؟ لأنّ المقارنة تبيّن أنّ الانعام لا عقول لها أساساً ، فهي لا تعطّل نعمةً مُنِحَتْها ، بينما الإنسان بعكس ذلك ، يعطّل مظهراً من أكبر مظاهر نعم اللّه تعالى عليه وهو العقل . وإذا كانت الأنعام لم تعطّل نعمة فإنّها فوق ذلك تتصرّف بوحيٍ من غريزتها وفق مصلحتها بينما الإنسان المعطّل لنعمة العقل يعمل ضدّ مصلحته الشخصيّة ، الّتي تكون في مخالفة الهوى . ولا تتم المخالفة إلّا عن طريق العقل وقد عطل . وبهذا تنتهي المقارنة إلى أنّ هؤلاء الكافرين أسوأ من الأنعام حالاً وأضلّ سبيلاً .

يضاف إلى هذا أنّ الأكثريّة الكافرة سبق إلى وهمها أنّ الرّسالة الّتي خُصَّ بها فردٌ من بني هاشم ليست إلّا نوعاً من المجد الّذي تتسابق بطون قريش إلى الحصول على أكبر حصّةٍ منه[1] وغاب عنهم أنّه فضل اللّه تعالى الّذي يختصّ به من يشاء من عباده . وقد بلغ إخلاص المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في سبيل دعوته الدّرجة الّتي كاد يهلك معها ، وقد نهاه القرآن الكريم في غير ما موضع عن ذلك الحزن وبيّن له أنّ حدوده تقف عند البلاغ أمّا النّتائج فأمرها موكولٌ إلى

---

(١) هذا هو الرّأي الّذي صرّح به أبو جهل . انظر مثلاً السّيرة ١/٣١٦

اللّه تعالى الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء . ومن الأدلّة على إخلاصه عليه الصّلاة والسّلام في سبيل الدّعوة قوله تعالى : ﴿ **أرأيت من اتّخذ إلّهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ . والمعروف أنّ الوكيل حريصٌ في العادة على مصلحة موكّله . والآية الكريمة تخاطبه عليه الصّلاة والسّلام قائلةً : مع أنّك يا محمّد حريصٌ على هذه المصلحة للقوم إلّا أنّهم لم ينزلوك منزلة الوكيل ، فأنت لك روح الوكيل وليس لك سلطته ، وبالتّالي أنت ليس في مقدورك أن تهدي من أحببت . وإنّ لسان الحال يقول : ولكنّ اللّه يهدي من يشاء . وإنّ حرف الجر « على » من قوله تعالى : ﴿ **أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ له كبير فضل في وصول الكلام إلى مراميه البعيدة ، لقدرته على الدّلالة على الاستعلاء . ولكنّه استعلاءٌ بالقوّة ، كما يقول المناطقة ، وليس بالفعل ، فهو مفقود في الحقيقة . قال تعالى : ﴿ **أرأيت من اتّخذ إلّهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً * أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً** ﴾ .

القسم الرابع

مِنْ آيات اللّه تعالى

إذا كان القسم السّابق يتعامل بالدّرجة الأولى مع الكافرين المنكرين للبعث والنشور والحساب . ومن ثمّ يغلب عليه طابع الإنذار . فإنّ هذا القسم يتعامل بدرجةٍ أكبر مع الرّاشدين الّذين إذا ذكّروا أفاقوا من غفلتهم وتدبّروا آيات اللّه تعالى وقاموا بما يجب عليهم من شكر للّه تعالى المنعم المتفضّل .

وفي هذا القسم إطاران كبيران تتجلّى فيهما نعم اللّه تعالى على الإنسان من الوجهتين ، المادّيّة والمعنويّة . الإطار الأوّل يتكوّن من شقّين ، الأوّل السّماوات والأرض ، والثّاني اللّيل والنّهار . والإطار الثّاني يتكوّن من شقّين أيضاً . الأوّل القرآن الكريم والثّاني الرّسول العظيم . ونستطيع أن نقول إنّ الهدف من سرد هذه النّعم حمل الإنسان على التّأمّل والتّدبّر فالشّكر للّه على نعمه وآلائه وذلك بعبادته وحده لا شريك له .

فإذا تأمّلنا الإطار الأوّل المتعلّق بالسّماوات والأرض واللّيل والنّهار ، تبيّنّا أنّ الآيات الكريمة تتحدّث عنه من زاوية تسخير اللّه تعالى لهذه النعم . بأكثر من زاوية الإيجاد من العدم والخلق . إنّ

الهـدف من خلق هذه الآيـات الكبار ، هـو ما يحـرص هذا القسم على لفت الانتبـاه إليه ، ولهـذا نجده يعـرض لهذه الآيـات من زاويـة النّفـع الحاصل منها بأكثـر من زاوية خلقهـا . ومن ثمّ يدور في هـذا القسم ما يدلّ على النّفع ألا وهو جملة « جعل » بأكثر ممّا تدور جملة « خلق » ، ولا يخفى أن جملة « جعل » تقوم ضمنـاً بدور جملة « خلق » . وإليـك الدّليل . قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيـراً * وهو الّذي جعل لكم اللّيـل لباسـاً والنّوم سباتاً وجعـل النّهار نشـوراً * وهو الّـذي أرسل الـرّياح بُشـراً بين يدي رحمتـه ، وأنزلنـا من السّماء مـاءً طهـوراً * لنُحْيي بـه بلدةً ميتـاً ونسقيـه ممّـا خلقنـا أنعـامـاً وأنـاسي كثيراً . . . . . وهو الّـذي مرج البحـرين هذا عـذبٌ فراتٌ وهـذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخـاً وحجراً محجـوراً** ﴾ . ولعلّنا تبيّنّـا أن جملة خلق جـاءت بشأن الأنعـام والأناسي الكثيـر ، ولكن لا يخفى أيضـاً أنّ الهدف الأكبر للآية الكريمة هو التّنبيه إلى النّفع الحاصل من نعمة الماء لمـا خلق اللّه تعـالى من أنعـام وأنـاسيّ . بـل إنّ الآيـة الكـريمـة الّتي تتحدّث عن خلق البشر تتحـدّث عن خلق هذا الجنس من المـاء وليس من الـطّين ، ولا تلبث أن تـردف جملة « خلق » بجملة « جعــل » الّتي يرتبط بها الهدف الثّاني الأكبر للآية الكريمة ، وهو تـأمّل الإنسـان نفسه والشّكـر للّه تعالى المتفضّـل عليه بـالنّعم . قال تعـالى : ﴿ **وهو الّـذي خلق من الماء بشراً فجعله نسبـاً وصهراً ، وكـان ربّك قـديراً** ﴾ . وإنّ الشّيء ذاتـه يقـال عن الآيـات الكـريمـة الّتي تتحـدّث عن السّمــاوات والأرض ومـا بينهمـا . فـإذا كـان الحـديث قـد ابتـدأ بخلق اللّه تعـالى للسّمـاوات والأرض وما بينهمـا ، واستواء الـرّحمن على العرش ، فـإنّ الحـديث قـد اتّجـه مـرّة أخـرى الى السّمـاء والأرض من زاويــة النّفـع

الحاصل للإنسان منهما في هيئة شقّي المادّة الكبيرين ، السّماوات والأرض ، واللّيل والنّهار . أمّا السّماوات فقد جعل اللّه تعالى فيها البروج والسّراج المضيء والقمر المنير . وينتفع بذلك كلّه الإنسان . وأمّا آيتا اللّيل والنّهار اللّتان تتجلّيان في السّماء والأرض ، فكان الحديث عنهما من زاوية انتفاع الإنسان منهما أيضاً بقصد أن يتذكّر هذا الإنسان إن كان ناسياً أو غافلاً . أو يشكر لربّه عزّ وجلّ إن كان مؤمناً مطيعاً . وقد جاءت جملة « جعل » في الآيتين الأخيرتين مرّاتٍ ثلاثاً ، دليلاً على ما ذكرنا .

فإذا أردنا استعراض آيات هذا القسم ، تبيّنّا أن أولى الآيات الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ والّتي لفت إليها الانتباه هي آية الظّلّ الّذي يوجد نهاراً وقبل طلوع الشمس وبعد الغروب ، وآية اللّيل والنّهار وذلك يعني أنّ الحديث قد شمل دورة لليوم كاملة . ثمّ تمّ التحوّل إلى آية وثيقة الصّلة باللّيل والنّهار وتقلّبات الأجواء فيهما ، وهي آية الماء الطّهور النّازل من المزن . وإذا كان كل من اللّيل والنّهار يتعلّق به مصلحة الإنسان المادّيّة بدرجةٍ أوضح ، فإنّ مصلحة هذا الإنسان الرّوحية لا تقلّ أهمّيّة بحال، وكان من نصيبها لفت الانتباه إلى القرآن الكريم وتصريف القول فيه . ولا يخفى أنّ الجامع بين آية الماء وآية القرآن نزول كلّ من السّماء . ومن الطّبيعيّ أن يتحوّل الحديث إلى المصطفى صلى اللّه عليه وسلّم الّذي نزل عليه القرآن ، والّذي أرسله اللّه تعالى رحمة للعالمين . فليست سيرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم إلّا تطبيقاً للقرآن الكريم وروحاً منه . ولمّا كان الماء النازل من المزن عذباً طهوراً ، ومصدره في الغالب الماء الملح ، فقد تمّ لفت الانتباه أيضاً إلى هذين النّوعين من الماء ، العذب الفرات والملح الأجاج ، وتسخير اللّه تعالى لهما ـ أسوة بكلّ النّعم ـ من أجل الإنسان

الّذي تحوّل الحديث إليه باعتباره آيةً كبيرة من آيات اللّه تعالى ، ولمّا كان الحديث في الغالب متعلّقاً بالماء ، ماء الأبدان وماء الأرواح ، لذا كان الحديث عن الإنسان من زاوية كونه في الأصل ماء ، فجعله اللّه تعالى نسباً من جهة الذّكورة وصهراً من جهة الأنوثة .

ثم كان التحوّل إلى الإنسان الكافر . والمعروف أنّ هذا الجنس من النّاس ، من أكبر أهداف السّورة الكريمة . وحيث إنّ المصطفى صلى الله عليه وسلّم قد لقي العنت من جانب الإنسان الّذي تلك صفته ، فقد حددت وظيفته عليه الصّلاة والسّلام بأنّها تقف عند التبشير والإنذار . أمّا النّتائج فأمرها موكولٌ إليه عزّ وجلّ ، ويلاحظ أنّ هذا القسم لا يكتفي اكتفاء الآية الكريمة الأولى من السّورة بالإنذار إنّما جمع إلى ذلك الصّفة المقابلة أيضاً . وهذه الظّاهرة منعطفٌ واضحٌ للسّورة الكريمة إذ أخذت تتّجه بعد ذلك نحو التبشير . وإذا كان الإنذار قد أخذ حظّه من ذي قبل ، فقد بدأ التبشير الآن يأخذ حظّه ، وقد تمثّل ذلك بوضوح في القسم الأخير من السّورة الّذي يختصّ ـ باستثناء الآية الأخيرة من السّورة ـ بذكر عدد من أهمّ صفات عباد الرّحمن كما سنرى . وقد مهّد للتحوّل إلى عباد الرّحمن بذكر هذا اللّفظ الكريم مرّاتٍ عدّةٍ في الجزء الأخير من هذا القسم ، والإشارة إلى التّذكّر والشّكر . والّذين يتّصفون بذلك هم عباد الله تعالى الرّاشدون المؤمنون .

وهذه هي آيات القسم ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً * ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً * وهو الّذي جعل لكم اللّيل لباساً والنّوم سباتاً وجعل النّهار نشوراً * وهو الّذي أرسل الرّياح بُشْراً بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السّماء ماءً طهوراً * لِنُحْيِي به بلدةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ ممّا خلقنا أنعاماً**

واناسي كثيراً * ولقد صرفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً * ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نـذيراً * فـلا تطع الكـافرين وجـاهدهم بـه جهـاداً كبيراً * وهـو الّذي مـرج البحرين هـذا عذبٌ فـراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً * وهو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً * وكان ربّـك قديـراً * ويعبدون من دون اللّه ما لا ينفعهم ولا يضرّهم * وكان الكافر على ربّه ظهيراً * وما أرسلنـاك إلاّ مبشّراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاّ من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً * وتوكّل على الحيّ الّـذي لا يموت وسبّـح بحمده وكفى بـه بذنوب عباده خبيراً * الّذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العـرش الرّحمٰن فـاسأل بـه خبيراً * وإذا قيـل لهم اسجدوا للرّحمٰن قالوا وما الرّحمٰن أنسجد لما تأمـرنا وزادهم نفـوراً * تبارك الّذي جعل في السّماء بـروجاً وجعـل فيها سـراجاً وقمـراً منيراً * وهـو الّـذي جعـل اللّيـل والنّهـار خلفـة لمن أراد أن يـذّكّـر أو أراد شكوراً ﴾

ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ؟

المظهر الأوّل لقدرة اللّه تعالى الّذي أشارت إليه الآيات هو الظلّ الّذي أوجد من أجل مصلحة الإنسان وراحته . قـال تعالى : ﴿ **ألم تـر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شـاء لجعله ساكنـاً ثمّ جعلنا الشّمس عليـه دليلاً * ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ .

إنّ معنى القول ـ خطابـاً وتسليةً للمصـطفى صلّى اللّه عليه وسلم بـالدرجـة الأولى ـ «ألم تر إلى ربـك » ألم تر إلى لـطيف صنع ربّـك . فهـذه الآية اللطيفـة ، آية الـظّلّ ، قويّـة الدّلالـة على قـدرة اللّه تعـالى المطلقة وحكمته البالغة . وبسبب إلفنا لهذه الظاهـرة العجيبة ، كـأنّا لم

نعد نأخذ منها ما ينبغي أخذه من دلائل وإيحاءات . والتنبيه إلى هذه الآية الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ ، يُنبّه حسّنا الغافل إلى ما في هذه الآية العظيمة من دلالة على بديع صنعه عزّ وجلّ وقدرته المطلقة . وحينما يصحو انتباهنا من غفوته على حركات الظّلّ الموزونة وأشكاله المختلفة المضبوطة ، يكون عنده القدرة على أن يتّخذ من الانتباه واليقظة عادة بدلاً من الغفلة والوسن . وهذا المرمى البعيد من أهداف التنبيه اللّطيف إلى نعمة الظّلّ وجماله . فما هي الأوقات الّتي أرادت الآيتان الكريمتان أن تنبّهنا إلى حركات الظّلّ وأشكاله فيها ؟ هذا السّؤال يحتّم علينا أن نستأنس بالآية الكريمة التّالية الّتي تتحدّث عن اللّيل والنّهار معاً ، فإنّ لها دوراً كبيراً في فهم أوقات الظّلّ إذ نتبيّن من الوقوف عليها أنّ الآيات الكريمة الثّلاث الّتي تتحدّث عن الظّلّ واللّيل والنّهار ، تشمل دورةً كاملةً للأرض حول نفسها ، أي أربعاً وعشرين ساعة . وهي الّتي يتكوّن منها ليلٌ ونهارٌ أو يومٌ كامل . قال تعالى : ﴿ **وهو الّذي جعل لكم اللّيل لباساً والنّوم سباتاً وجعل النّهار نشوراً** ﴾ .

وفي سبيل معرفة الأوقات المختلفة للظّلّ ، يبدو أنّنا بحاجة إلى أن نقف عند حرف العطف « ثمّ » مليّاً ، فإنّ له القدرة بطبعه على الإيحاء بالتّحوّل من طورٍ إلى طورٍ ومن حالٍ إلى حال . وهذه القدرة تتجلّى في الموضعين اللّذين يستعمل فيهما هذا الحرف : ﴿ **ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً * ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ . إنّ الحرف « ثمّ » في الموضع الأوّل يربط الظّلّ بحركة الشّمس ، وفي الموضع الثّاني يربط قبض الظلّ بغياب الشّمس . فما حدود ذلك الوقت ، وما المراد بمدّ الظّلّ في قوله تعالى في الآية الأولى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ** ﴾ وأي الأوقات هو المراد ؟

لعل أقوم سبيل أن نبدأ بأوضح الأوقات ، ألا وهو الّـذي فيه ذكـر الشّمس ، وذلـك في قولـه تعالى : ﴿ **ثمّ جعلنـا الشّمس عليه دليلاً** ﴾ **إنّ حرف العطف ثمّ يشير إلى مرحلة تالية . فهل هي مرحلةٌ زمنيةٌ تالية أم أنّها حالةٌ أخرى ، وبالتّالي فإنّ موقع «ثُمّ» كما يقول الزمخشـريّ لبيان تفاضل الأمـور الثّلاثـة ، كأنّ الثّـاني أعظم من الأوّل ، والثّـالث أعظم منهما ، تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضـل بتباعـد ما بين الحـوادث في الوقت ؟ سوف نتبيّن الجواب مستقبلاً .**

إنّ قوله تعـالى : ﴿ ثمّ جعلنا الشّمس عليـه دليلاً ﴾ يعني بـطبيعة الحال أنّ حركة الظّلّ تتبع حركـة الشّمس ، فهي بمنزلـة الدّليـل القائـد له . وما أجمل وقع مثل هذا التعبير في نفوس العـرب الّذين كـانوا على علمٍ جدّ تامّ بطبيعة الدّور الّذي يقوم به الدّليل في القـافلة . ليس على الـدّليل إلاّ أن يتّجـه كيف يشاء ، وليس على القـافلة كلّها إلاّ أن تكـون طوع بنانه . ومعروفٌ بـطبيعة الحـال الوقت الّـذي يشمله هذا القـول : ﴿**ثمّ جعلنـا الشّمس عليـه دليـلاً** ﴾ إنّـه الـوقت الّـذي يمتـدّ من طلوع الشّمس إلى غروبها فيقبض الظّلّ قبضاً يسيراً .

وحيث إنّنا سبق أن تحوّلنا إلى الآية الثّالثة الّتي تتحدّث عن اللّيل والنّهار كي يكمل اليوم ويسهل فصل أجزائه بعضها عن بعض ، فإنّا نودّ في ضوء هذه الآيات الثّلاث كلّها أن نقسّم اليوم إلى أجزائه الـطبيعيّة . وأوّل ما يصادفنا ، بطبيعـة الحال ، اللّيـل والنّهار . وقـد جمعت بينهما الآية الثّالثة : قال تعـالى : ﴿ **وهو الّـذي جعل لكم اللّيـل لباسـاً والنّوم سبـاتاً وجعـل النّهار نشـوراً** ﴾ وأشارت إلى النّهـار الآيـة الأولى . قـال تعـالى : ﴿ **ثمّ جعلنا الشّمس عليـه دليلاً** ﴾ . وواضـحٌ أنّ الآية الثّـالثة تتحـدّث عن اللّيـل والنّهـار بـاعتبـارهمـا آيتين واضحتين من آيـات اللّه

تعالى ، دون المساس بحدود كلٍّ من اللّيل والنّهار . ومن هنا كان التّعامل مع اللّيل والنّهار وحدودها المتسامح فيها سهلاً ميسوراً . وليس الأمر كذلك بشأن الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن ظلٍّ متحرّك ذي حالاتٍ ثلاث . فهو ظلٌّ ممدود ،وهو ظلّ تدلّ عليه الشّمس ، وهو أخيراً ظلٌّ يُقْبَضُ إليه عزّ وجلّ قبضاً يسيراً ، وإذا كنّا حدّدنا مبدئياً وقت الظلّ الّذِي تدلّ عليه الشّمس ، بأنّه الممتدّ بين طلوع الشمس وبين الغروب ، فإنّا نودّ أن نعرف المعنى الّذي يمكن أن يفهم من مدّ الظّلّ في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ** ﴾ ووسيلتنا الى ذلك أن نتساءل : هل ثمّة نصٌّ في القرآن الكريم يساعد على الفهم بأنّ الظّلّ يمكن أن يكون في حالة عدم ظهور الشّمس ؟ إنّ الجواب لحسن الحظّ بالإيجاب . وإليك ما جاء بشأن أصحاب اليمين في الجنّة يوم القيامة . قال تعالى في سورة الواقعة[1] : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدرٍ مخضودٍ * وطلحٍ منضودٍ * وظلٍّ ممدودٍ * وماء مسكوبٍ * وفاكهةٍ كثيرةٍ * لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ * وفرشٍ مرفوعةٍ * إنّا أنشأناهنّ إنشاء * فجعلناهنّ ابكاراً * عرباً أتراباً * لأصحاب اليمين * ثُلّةٌ من الأوّلين * وثلّةٌ من الآخرين** ﴾ .

وحيث إنّ المفسّرين قد ذهبوا إلى أنّ ظلّ الجنّة الممدود لا شمس فيه ولا ظلمة ، فمعنى هذا أنّ الظّلّ المراد في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ** ﴾ هو الّذي ذهب إليه الجمهور من كونه الظّلّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس[2] والّذين يصلّون الفجر ، وبخاصّةٍ في المساجد جماعةً ، يدركون أيّما إدراك جمال

---

(١) آيات ، ٢٧ ـ ٤٠ .

(٢) انظر هنا البحر المحيط ، ٥٠٣/٦ .

امتداد الظلّ صباحاً في السّماوات والأرض رويداً رويداً ، عقب الفجر الوليد ، بين يدي اليوم الجديد .

وهكذا يتبيّن أنّ قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً** ﴾ يمثّل مرحلةً قائمةً برأسها هي الّتي تعقب اللّيل وتسبق طلوع الشّمس . وأنّ قوله تعالى : ﴿ **ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً** ﴾ يمثّل المرحلة الأخرى التّالية القائمة برأسها أيضاً والواقعة بين طلوع الشّمس وبين غروبها . ولا يخفى أنّ الظّلّ السّابق لطلوع الشّمس والّذي تلتقي عنده حدود اللّيل والنّهار ، للنّهار منه النّصيب الأوفى ، لأنّ النّهار وليد . وأنّ الظّلّ التّالي لغروب الشّمس ، والّذي تلتقي عنده أيضاً حدود اللّيل والنّهار ، للّيل منه النّصيب الأوفى ، لأنّ اللّيل جديد . كما يتبيّن أيضاً أنّ « ثمّ » له دوره في الدّلالة على مرحلة زمنيّة تالية قائمةٍ برأسها . فما هو دور ثمّ في الآية الكريمة التّالية بشأن الوقت الّذي يعنيه قوله تعالى : ﴿ **ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ .

إنّ الشّمس في الفترة بين طلوعها وبين الغروب ، تكون دليلاً على نوعٍ من الظلّ يختلف عن الظلّ السّابق في مرحلة الانتقال من اللّيل إلى النّهار حيث يبدو الظّلّ في الفجر طفلاً، لا يلبث أن يحبو في امتداده وأن ينتشر في عدوه واشتداده ، حتّى يأتي أخيراً على البقيّة الباقية من فلول جيش اللّيل المنهزم ، في صورة الصّبح الجديد . لقد شاءت إرادة الله تعالى الّذي خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديراً ، أن تتمّ هذه العمليّات المتتالية في لطفٍ ولين ، مريحين للأعين والأنفس . وهل المصابيح الّتي اخترعها الإنسان متدرّجة في اشتدادها أو خفوتها ، ممّا له أثرٌ طيّبٌ على الأعين والأنفس ، إلّا اقتباسٌ من حركات الظّلال المختلفة . أما وقد تبيّن حتّى الآن أنّا بصدد نوعين من الظّلّ مُختلفين

في فترتين من الزّمن مختلفتين ، وأنّ لحرف العطف « ثمّ » دوراً واضحاً في الدّلالة على التحوّل من فترةٍ إلى أخرى ، فهل في الإمكان معاملة « ثمّ » التّالية المعاملة ذاتها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ ؟ . وهل يمكن القول بالتّالي بأنّ هذه الآية الكريمة تدلّ على نوعٍ من الظّلّ ثالثٍ مخالفٍ للسّابقين ، هو الظّلّ التّالي لغروب الشّمس المقبوض هذه المرّة بيد القدرة الإلٰهية قبضاً يسيراً إلى أن يأتي اللّيل البهيم على البقيّة الباقية منه في أعقاب النّهار المودّع ؟ الحقيقة أنّ هذا هو ما نريد الإفصاح به ، وما نعتقد ـ واللّه تعالى أعلم ـ أنّ الآية الكريمة تعنيه ، وبالتّالي نحن أمام ثلاثة أنواعٍ من الظّلال . الظّلّ الممدود فجراً . والظّلّ المتحرّك نهاراً . والظّلّ المقبوض بعد الغروب . إنّ كلًّا من الظّلال الثلاثة متحرّك . تبدو حركة الأوّل في اشتداد الضّوء اضطراداً . وتبدو حركة الثّاني تبعاً لحركة الشّمس . وتبدو حركة الثّالث في خفوت النّور تباعاً . ولتماثل الحركات الثلاث التي هي في الحقيقة وليدة الحركة لشمسٍ واحدة ، في حالة الإقبال والحضور والإدبار . اكتفي عقب ذكر النّوع الأوّل من الظّلال بالإشارة إلى نفي سكون الظّلّ . قال تعالى : ﴿ **ولو شاء لجعله ساكناً** ﴾ .

ممّا سبق يتبيّن أن حرف العطف « ثمّ » يدلّ في كلٍّ من الموضعين على مرحلةٍ زمنيّة تالية يختلف حال الظّلّ فيها عن المرحلة السّابقة .

وفي إمكاننا ، أن ننظر إلى الآيتين الكريمتين مرّة أخرى ، من الزّاوية البيانيّة . قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشّمس عليه دليلاً . ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ . إن الآية الكريمة الأولى تستخدم جملة « تَرَ » المتعلّقة

بالحاسة القادرة وحدها في هذه المناسبة على أن تعمل وتتقن العمل ، مستعملة أسلوب الاستفهام القادر بإيحاءاته المتعدّدة على حمل كلّ ذي عينين ولبّ على إنعام النّظر وإدامة التّأمّل في النّهار ـ يليه اللّيل ـ متمثّلاً في حركة الظّلّ المقدّرة تقديراً . إنّ الرّائي في هذه الحال يبصر بعينيه ويتأمّل بفكره وبصيرته . إنّ عينه ترتاح لكلّ ما ترى متنقّلة من ظلٍّ يتحرّك عقب ليلٍ مفارقٍ ويمتدّ في لطف ، وينتشر في يسر ، إلى ظلٍّ آخر يتحرّك وفق حركة الشّمس ، فهو يبدأ ـ كما ينتهي ـ طويلاً . ويأخذ في القصر كلّما أخذت الشّمس في الارتفاع . فإذا أخذت في الانحدار عن قبّة السّماء ، عاد الظّلّ طويلاً إلى أن يساوي ظِلُّ قبيل الغروب بعيد الشروق ، ثمّ يختفي هذا النّوع باختفاء الشّمس ، كَيْ يأتي الظّلّ الثالث والأخير الّذي يأخذ الظّلام رويداً رويداً في لمّ شتاته ، وضمّ أطرافه ، واحتلال مسافاته ، وتضييق الخناق فالإجهاز عليه أخيراً .

وتأمّل جملة « مدّ » الشّابّة الفتيّة الّتي تستعملها الآية الكريمة حينما تلْفِت الانتباه الى لطف صنع اللّه تعالى بشأن الظلّ الدّالّ على النّهار الشّابّ الفتيّ في أعقاب اللّيل المودّع . وتأمّل هذا التّعبير الهنيّ الرّضيّ الموجّه أساساً للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلم : « ربّك » ومع ذلك فإن كلّ إنسانٍ في إمكانه أن يُحِسّ في أعماقه بأنّه هو الّذي يتوجّه إليه الحديث ، في هذا الجوّ الّذي تتضوع فيه رائحة المحبّة والحنان . أو ليست لفظة الرّبّ تستعمل عادة حينما ينضح الجوّ بالودّ والمحبّة والحنان . فكيف إذا لحق بهذا اللّفظ الحبيب ضمير المخاطب الّذي يجعل كلَّ إنسانٍ يُحِسّ في أعماقه بأنّ له نصيباً كبيراً من ذلك الخير العميم .

وتأمّلْ أيضاً هذا التّعبير : ﴿ **ولو شاء لجعله ساكناً** ﴾ إنّ إرادة اللّه

تعالى شاءت أن يكون كلّ ظلٍّ متحرّكاً ، لأنّ اللّطيف الخبير الّذي سخّر للإنسان ما في السّماوات وما في الأرض يعلم أنّ مصلحة الإنسان في ذلك . ولو كانت المصلحة في جعله ساكناً لتمّ ذلك أيضاً بإرادة مالك الملك عزّ وجلّ ، ولكنّ المصلحة في الحركة وليس في السّكون . فهل فطن الإنسان إلى هذه الحقيقة ؟ وهل قدّر هذه النّعمة حقّ قدرها وقام بما يجب عليه إزاءها من شكر للّه تعالى وعرفان وذلك بعبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له ؟ وهل يستفيد من هذه العبادة إلاّ هو ؟

وتأمّل أيضاً قوله تعالى بشأن المرحلة الثالثة من الظّلّ : ﴿ **ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ ولعلّ أوّل ما لفت انتباهك قدرة جملة « قبضنا » على العودة بك إلى جملة « مدّ » بشأنِ الظّلّ في المرحلة الأولى لاقتراب هذه الجملة في الدّلالة ، من مقابل جملة قبض ، ألا وهي جملة بسط ، ثمّ دلالة جملة « قبض » وإيحاءاتها المغايرة لدلالة جملة « مد » وإيحاءاتها . وكأنّ هذه ، أعني « مدّ » موحية بإيجابيّة الظّلّ الّذي يشتد عوده باستمرار ويستوي ، وتلك ـ أعني « قبض » ـ بسلبيّة الظلّ الّذي يأفل نجمه بسطوع نجم اللّيل . أو لست معي بأنّ جملة مدّ لها إيحاءاتها الّتي تقذف للذّهن توّاً بصورة اليد الممدودة دليل العطاء والإسعاد . وأنّ جملة « قبض » لها إيحاءاتها الّتي تقذف للذّهن توّاً بصورة اليد المقبوضة دليل المنع والإبعاد . إنّ جملة قبض المستعارة في الآية الكريمة لتقريب المعاني لنا نحن البشر في اللّغة الّتي يمكن أن نفهم ، قادرةٌ على الإيحاء بصورة تلك اليد الممدودة في لطف والّتي تسحب ، في رفقٍ ويسر ، بأصابعها الّتي تطوى ، ما تريد سحبه . وقد عدّي الفعل « قبض » بإلى كي يتضمّن عمليّة السّحب هذه ويعيّن الاتّجاه ، وإنّما عُدِل إلى جملة « قبض » بالذّات لقدرتها على

الدّلالة على قدرة اللّه تعالى المطلقة . ثمّ ألست معي بأنّ هذا الظّلّ المنتشر عقب غياب قرص الشّمس ، والّذي يأخذ في الانحسار قليلاً قليلاً ، يوحي تدرّج رحيله ، حتّى يغيب دفعةً واحدة ، بأنّه كما لو أنّ ثمّة غاية ينتهي إليها ونقطة يتجمّع فيها . إنّنا نحن البشر ، حينما نستعمل جملة قبض فإنّه يرتبط بها في ذهننا لفظة القبضة . ولو أنّنا تعاملنا مع إنسان بعينه وتمثّلناه قابضاً على شيء مّا غير ذي بال ، لانتهينا الى معرفة شيء من قدرته وسلطانه . فإذا عُدْنا الى الآية الكريمة تبين أنّ جملة قبض ، بشأن الذّات العليّة ، تدلّ على قدرة القابض المطلقة وضعف المقبوض عليه وهوانه . وإذا كانت اليد ، في مثل حالة القبض هذه ، قادرة على الإيحاء بقوّة صاحبها وقدرته ، فكيف هو إيحاء الآية الكريمة الّتي تستعمل بشأن آية من آيات اللّه تعالى القبض اليسير اللّطيف الهيّن ، الّذي يؤدّي أخيراً إلى كون آية اللّيل تخلف آية النّهار . قال تعالى[1] : ﴿ **وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فَضْلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السّنين والحساب * وكلّ شيء فصّلناه تفصيلا** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ **وهو الّذي جعل اللّيل والنّهار خلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلا * ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ وقد يقول قائل : أليس في الإمكان أن نذهب إلى أنّ الآيتين الكريمتين تتحدثان عن الظّلّ من طلوع الشّمس الى غروبها فقط ؟ والجواب بالنّفي . ومن أهمّ الأدلّة على ذلك هو أنّ جملة « مدّ » في

---

(١) سورة الإسراء ، ١٢ .

(٢) سورة الفرقان ، ٦٢ .

صدر الآية الكريمة الأولى لا تتمشّى مع طبيعة الظّلّ في أوّل النّهار حيث إنّه بارتفاع الشّمس لا يمتد بل يتقلّص حتّى الزّوال . ثمّ يأخذ بعد ذلك في الامتداد . إنّ قول هذا القائل لا يُساعدنا عليه اللّغة ولا الشّمول الّذي هو مظهرٌ من مظاهر الإعجاز القرآني .

اللّيل والنّهار :

قال تعالى : ﴿ **وهو الّذي جعل لكم الليل لباساً والنّوم سباتاً وجعل النّهار نشوراً** ﴾ لقد ابتدأت الآية الكريمة بذكر اللّيل لأن المرحلة الثّالثة من الظّلّ تُسْلمنا إليه حالاً .

وحيث إن الآيتين الكريمتين السّابقتين لا تتحدّثان عن اللّيل أو النّهار الخالصين ، على الرّغم من أنّ حظّ النّهار أكبر من اللّيل ، فإنّ حديث هذه الآية الكريمة عن اللّيل خالصاً استدعى الحديث عن النّهار خالصاً من باب التّداعي بالتّضاد . وأوّل ما يلاحظ أنّ جملة « جعل » بين يدي الحديث عن اللّيل هي ذات الجملة الّتي لا تجيء مرّةً أخرى إلّا بين يدي الحديث عن النّهار تَمشيّاً مع الطّبيعة المغايرة لكل من الفترتين المتميّزتين . وما أهمّ ما يلاحظ على اللّيل ؟ إنّه يلبس كل شيء بظلامه كي تتاح الفرصة الكاملة ، لأكثر المخلوقات ، وفي مقدّمتها الإنسان ، أن يأخذوا عن طريق النّوم العميق أوفي نصيب من الرّاحة بعد كدح النّهار . وما أهمّ ما يلاحظ على النّهار ؟ انتشار النّاس في الأرض يبتغون من فضل اللّه تعالى بعد أن حصلوا ليلاً على ما يحتاجون إليه من راحةٍ بسبب النّوم السّبات . وتأمّل القول : « لكم » خطاباً لذرّيّة آدم عليه السلام . إنّ كلّ ما في السّماوات والأرض قد سخّره اللّه تعالى للإنسان كي ينتفع به ، وذلك من مظاهر تكريم اللّه تعالى للإنسان كي يعرف قيمته ويعرف الّذي ينتظر منه في المقابل ، ألا

وهو إفراد المنعم بالعبادة . وتأمّل استعارة اللّباس للّيل الّذي يغطّي ، لحكمةٍ جليلة ، كلَّ شيءٍ بظلامه . وكأنّ الظلام ، للنّفع الحاصل به ، ذلك اللّباس الّذي يحرص الإنسان السّويّ على الحصول عليه وارتدائه كي يستر جسمه ويبعد عنه أذى القُرّ والحَرّ والآفات وينعم بالتقلّب فيه . وحينما يتخلّص الإنسان ليلاً من بعض ما يلبس ، فلأنّ الليل بطبعه مكمل لما نقص من لباس .

وليس ثمّة كبير فرق بين أن نعتبر السّبات بمعنى الرّاحة أو بمعنى الموت ، لأنّ هذا الموت الأصغر سببٌ للرّاحة ، وبالتّالي نكون بصدد استعارة أخرى وبصدد إشارةٍ خفيّة إلى وجوب أخذ العبرة من هذه النّعمة ، وبذلك تأخذ الاستعارة بسبب من نحو قوله تعالى[1] : ﴿ **وهو الّذي يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار** ﴾ وقوله[2] : ﴿ **اللّه يتوفّى الأنفس حين موتها والّتي لم تمت في منامها فيمسك الّتي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى ، إن في ذلك لآيات لقومٍ يتفكّرون** ﴾ .

وحينما نفسّر السّبات بمعنى الرّاحة ، يحسن أن نفسّر النّشور ، بشأن النّهار ، بأنّه وقت الانتشار في الأرض والتّفرّق ابتغاء فضل اللّه تعالى . وحينما نفسّر السّبات بالموت يحسن أن نفسّر النّشور بالحياة . وبالتّالي يكون في الآية الكريمة استعاراتٌ ثلاث ، لباساً وسباتاً ونشوراً . ونكون بصدد إشارةٍ أخرى خفيّة إلى وجوب أخذ العبرة من نعمة الاستيقاظ . فإذا كان النّوم بمنزلة الموت الأصغر ، فليس

---

(١) سورة الأنعام ، ٦٠ .

(٢) سورة الزّمر ، ٤٢ .

الاستيقاظ والانتشار في الأرض ابتغاء فضل اللّه تعالى إلاّ بمنزلة البعث والنّشور يوم القيامة ، فعلى كلّ إنسانٍ أن يُعِدّ العُدّة لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أشارت الى أقرب منافع اللّيل والنّهار تناولاً ، ففي إمكان كلّ حصيفٍ وواعٍ أن يتأمّل الإشارات القرآنية الأخرى إلى آيتي اللّيل والنّهار ، وأن يتدبّر كلاًّ منهما ، فإنّه منتهٍ حتماً إلى أخذ العظة والاعتبار ، والشّكر للّه تعالى على جليل نعمه الّتي تتجلّى في كلّ شيء خلقه فقدّره تقديراً . إنّ من أقرب نعم اللّه تعالى - مثلاً - بشأن آيتي اللّيل والنّهار طول كلّ منهما الموافق لمصلحة البشر واستعدادهم للعمل والرّاحة . ولو أن فترة كل منهما مالت إلى القصر أو الطّول لاضطربت الأمور وانعدمت المصالح بسبب القصر أو الطّول المفرطين . فكيف لو كان اللّيل أو النّهار سرمديّاً ؟ قال تعالى[1] : **﴿ قل أرأيتم إن جعل اللّه عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير اللّه يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل اللّه عليكم النّهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير اللّه يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه ، أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾** .

الرّياح والمطر :

قال تعالى : **﴿ وهو الّذي أرسل الرّياح بُشْراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السّماء ماءً طهوراً * لنحيي به بلدةً ميتاً ونُسْقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً ﴾** .

---

(١) سورة القصص ، ٧١ - ٧٣ .